

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

اللَّهُمَّ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا، اللَّهُمَّ عَلِّمْنَا مَا يَنْفَعُنَا وَزِدْنَا عِلْمًا.

أَمَّا بَعْدُ.. فَقَدْ ثَبِتَ فِي «الصَّحِيحِينَ» وَغَيْرِهِمَا مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(١).

وَهَذَا الْحَدِيثُ الْعَظِيمُ يَدُلُّ دَلَالَةً ظَاهِرَةً عَلَى عِظَمِ مَكَانَةِ الْفَقْهِ فِي الدِّينِ، وَأَنَّ الْإِشْتَغَالَ بِهَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ وَالْعَنَاءَ بِهِ مِنْ عِلَامَاتٍ وَإِمَارَاتٍ إِرَادَةِ اللَّهِ ﷻ الْخَيْرَ بَعْدَهُ، وَالْإِرَادَةُ فِي الْحَدِيثِ هِيَ الْإِرَادَةُ الْكُونِيَّةُ الْقَدْرِيَّةُ «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا» أَي: كَوْنًا وَقَدْرًا؛ يُوَفِّقُهُ -جَلَّ وَعَزَّ- وَيُشْرَحُ صَدْرَهُ لِلإِشْتَغَالِ بِالْفَقْهِ فِي دِينِهِ.

وَقَوْلُهُ: «خَيْرًا» جَاءَتْ مِنْكَرَةً تَفْخِيمًا وَتَعْظِيمًا وَبَيَانًا لَكثْرَةِ الْخَيْرَاتِ الَّتِي يَظْفَرُ بِهَا وَيَفُوزُ بِهَا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْفَقْهِ فِي دِينِهِ، فَمِنْ عِلَامَاتِ الْخَيْرِ لِلْعَبْدِ أَنْ يُشْرَحَ صَدْرُهُ وَأَنْ تُقْبَلَ نَفْسُهُ عَلَى الْفَقْهِ فِي دِينِ اللَّهِ ﷻ، يُقْبَلَ عَلَى مَجَالِسِهِ وَيُرْتَبَطُ بِقِرَاءَةِ كُتُبِ الْعِلْمِ وَحِفْظِهَا وَمَذَاكِرَتِهَا وَمُدَارَسَتِهَا، وَيَكُونُ لَهُ فِي أَيَّامِهِ نَصِيبٌ مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ وَتَحْصِيلِهِ بِحَيْثُ لَا يَمُرُّ عَلَيْهِ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِهِ إِلَّا وَيَحْصُلُ فِيهِ عِلْمًا؛ لِأَنَّ مِنْ أَهْدَافِ الْمُسْلِمِ فِي يَوْمِهِ الَّتِي يَسْعَى فِي طَلَبِهَا وَيَجِدُ فِي نَيْلِهَا الْعِلْمَ النَّافِعَ؛ بَلْ هُوَ أَهَمُّ هَدَفٍ يَطْلُبُهُ الْمُسْلِمُ وَيَسْعَى فِي تَحْصِيلِهِ فِي يَوْمِهِ.

وَنَلَاظِ هَذَا -أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْكَرَامَ- فِي الدَّعْوَةِ الْمُبَارَكَةِ الْعَظِيمَةِ الْمِيْمُونَةِ الَّتِي كَانَ يَدْعُو بِهَا نَبِيُّنَا -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- كُلَّ يَوْمٍ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ كَمَا فِي حَدِيثِ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ كُلَّ يَوْمٍ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ بَعْدَ أَنْ يَسْلِمَ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا» وَفِي رَوَايَةٍ «وَعَمَلًا صَالِحًا» رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» وَابْنُ مَاجَهَ فِي «سُنَنِهِ» وَغَيْرُهُمَا،^(٢) وَهُوَ حَدِيثٌ ثَابِتٌ، فَهَذِهِ دَعْوَةٌ عَظِيمَةٌ كَانَ يَدْعُو بِهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كُلَّ يَوْمٍ إِذَا أَصْبَحَ.

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (ح ٧١)، وَمُسْلِمٌ (ح ١٠٣٧).

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهَ (ح ٩٢٥)، وَأَحْمَدُ (ح ٢٦٤٨١) وَفِيهِ «وَرِزْقًا وَاسِعًا»، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الرَّوْضِ.

وبدأ هذه الدعوة بالعلم النافع، قدّمه على الرّزق الطيّب وعلى العمل المتقبّل فبدأ به، والبداية يدلّ على الاهتمام.

وهذه الأمور الثلاثة التي جمعها النبي ﷺ في هذه الدّعوة المباركة هي في الحقيقة أهداف المسلم في يومه، فالمسلم ليس له في يومه؛ بل في أيامه كلّها إلّا تحقيق هذه الأهداف الثلاثة وتحصيلها:

* العلم النافع،

* والرّزق الطيّب،

* والعمل الصّالح.

وليس للمسلم في أيامه هدف رابع غير هذه الأهداف، فجمع النبي ﷺ في هذه الدعوة العظيمة أهداف المسلم في يومه، وجاء بهذه الدّعوة في أوّل اليوم وبدايته ليستهلّ اليوم بطلب العون من الله ﷻ ودعائه -سُبْحانه- الإعانة والتّوفيق لتحقيق هذه الأهداف وتحصيلها؛ لأنّه إن لم يكن من الله ﷻ عونٌ للعبد لا يمكن أن يحصل شيئاً، ولهذا مرّ معنا في حديث معاوية «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ» فإذا لم يكن من الله ﷻ عونٌ للعبد وتوفيقٌ وتسديدٌ؛ فإنه لا يتمكّن من تحصيل هذه الأهداف العظيمة.

ولهذا فإنّ المسلم ينبغي عليه كلّ يوم إذا أصبح بعد أن يصلي صلاة الفجر ويأتي بالأذكار المشروعة أدبار الصّلوات: الاستغفار ثلاثاً، وقول: اللّهُمَّ أنت السّلام ومنك السّلام تباركت ذا الجلال والإكرام. والتّهلّيل، والتّسبيح ثلاثاً وثلاثين، والتّكبير ثلاثاً وثلاثين، والتّحميد ثلاثاً وثلاثين، وإتمام المائة بلا إله إلا الله، وقراءة آية الكرسي، وقل هو الله أحد، والمعوذتين، التي كان يأتي بها عليه الصّلاة والسّلام أدبار الصّلوات.

فبعد هذه الأذكار الرّاتبية الموظّفة أدبار الصّلوات يدعو بهذه الدّعوة العظيمة ويأتي أيضاً بالأذكار المشروعة للمسلم أن يأتي بها في صباحه، فيكون بذلك استهلّ يومه بحسن التّوجه إلى الله ﷻ والالتجاء إليه وطلب المدد والعون والتّوفيق منه سبحانه أن ييسر له تحقيق هذه الأهداف العظام: العلم النافع، والرّزق الطيّب، والعمل المتقبّل.

وبدأ النبي ﷺ هذه الدّعوة بالعلم النّافع فيه أن العبد لا يستطيع أن يميّز بين رزق طيّبٍ وخبيثٍ وعملٍ صالحٍ وطالحٍ إلا بالعلم النّافع، فالعلم النّافع ضياءٌ لصاحبه ونورٌ له يهتدي به في الظّلمات، ويميّز به بين الحقّ والضّلال والهُدَى والباطل، والحرام والحلال، والسّنة والبدعة، كلّ ذلك لا يمكن للعبد

أن يميز بينه إلا بالعلم النافع المستمد من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فتوفيق الله ﷻ للعبد وشرح صدره لتحصيل العلم النافع والإقبال عليه هذا من أمارات ودلالات إرادة الله ﷻ الخيرة به.

قال: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» والمراد بالفقه في الدين أي في جانبه:

الأكبر؛ وهو العقائد.

والأصغر؛ وهو الأحكام.

فالفقه في الدين ليس خاصًا بمعرفة الأحكام؛ بل يتناول تناولاً أولياً الفقه في العقيدة التي هي أساس الدين، وعليها قيامه.

فمعرفة أصول الإيمان وقواعده العظام: كالإيمان بالله، والإيمان برسله، وملائكته، وكتبه، وغير ذلك من أصول الإيمان، كل ذلك داخل في الفقه في الدين؛ بل هو أساس يُبنى عليه الدين، وفي حديث جبريل المشهور لما سأل جبريل النبي ﷺ عن الإسلام، وذكر عليه الصلاة والسلام شرائع الإسلام الظاهرة الشهادتين والصلاة والصيام والزكاة والحج، ولما سأل عن الإيمان ذكر عقائد الدين الباطنة التي في القلب، وهي أصول الإيمان العظيمة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، ثم في تمام الحديث قال عليه الصلاة والسلام: «هَذَا جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ [أَمْرًا دِينَكُمْ]»^(١)، فعلم أن الدين:

يتناول الشرائع الظاهرة من صلاة وصيام وغير ذلك من الأحكام.

ويتناول أيضًا العقائد التي تكون في القلب الإيمان بالله والإيمان بالكتب والإيمان بالرسول والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره، فالاشتغال بتعلم العقيدة ومعرفة أصول الإيمان هو من الفقه في الدين؛ بل هو أساس الفقه في دين الله، ودين الله ﷻ إنما يُبنى على ذلك.

وإذا كان العبد مُشتغلاً بالأعمال مُعتنياً بالعبادات بلا عقيدة صحيحة يُقيم عليها دينه فإن أعماله لا تكون مشكورة عند الله مرضية عنده، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ لا بد من هذا؛ لا بد من الاعتقاد؛ لا بد من أصول الإيمان ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾^(١٩) [الإسراء]؛ أي: مرضياً مقبولاً عند الله ﷻ، وفي آية أخرى قال جل وعلا: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ

(١) أخرجه مسلم (ح ٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

عَمَلُهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَيْرِينَ ﴿٥﴾ [المائدة]، فالعمل لا يكون مرضياً مقبولاً مشكوراً عند الله ﷻ إلا إذا كان قائماً على الاعتقاد الصحيح والإيمان السليم المستمد من كتاب الله ﷻ وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

فقوله: «**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**» يدخل في هذا دخولاً أولياً دراسة العقيدة ودراسة التوحيد ومعرفة أصول الإيمان، فعناية العبد بذلك هي من الإرادة الله ﷻ الخيرة به.

والعقيدة شأنها في الإيمان والدِّين كشأن الأصول للأشجار والقواعد للبنیان، فكما أن الأشجار لا تقوم إلا على أصولها، والبنیان لا يقوم إلا على عماده، فكذلك الدِّين لا يقوم إلا على أصوله -أصول الإيمان- وهي أمور العقيدة التي ينطوي عليها قلب المؤمن الصادق ويُعمر بها فؤاده، ثم تزيّنُ جوارحه بالأعمال الصالحة تبعاً لصلاح قلبه كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**».^(١)

فإذا عُمِرَ الدَّاخل وصلاح بالإيمان فالجوارح تبعاً له، وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ عَمَّارَ بَنِ يَاسَرَ مُلِيََ إِيْمَانًا حَتَّى مُشَاشُهُ**»^(٢) يعني: حتى أطراف أصابعه امتلأ إيماناً من داخله، فالإيمان عندما يعمر القلب ويعمر داخل الإنسان الجوارح تبع.

فالفقه في دين الله ﷻ يتناول بالدرجة الأولى ويتناول تناولاً أولياً الفقه في العقيدة وأُمُور الإيمان التي يصلح بها داخل الإنسان، ليس المراد صلاح الظَّاهر دون الباطن؛ بل لابد أن يصلح باطن الإنسان ويستقيم على الإيمان بالله وعلى الإيمان بما أمر الله ﷻ عباده الإيمان به ويكون هذا الإيمان الذي ينطوي عليه قلبه ركيزة العمل الذي عليه يكون البناء، وعليه يكون قيام الدِّين.

ويدخل في قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**» معرفة الأحكام ومعرفة الشرائع معرفة العبادات التي أمر الله ﷻ عباده بها.

ويدخل في هذا دخولاً مقدِّماً بعد العقائد مباني الإسلام الخمسة التي ذكرها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قوله من حديث ابن عمر «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ**

(١) رواه البخاري (ح ٥٢)، ومسلم (ح ١٥٩٩) من حديث النُّعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه النسائي (ح ٥٠٠٧)، عن رجل من الصحابة لم يسمَّ، وابن ماجه (ح ١٤٧) من حديث علي بن أبي طالب، وغيرهما، وصححه الألباني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيحة (ح ٨٠٧).

الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ». ^(١) فهذه سَمَّاها النَّبِيُّ ﷺ مباني الإسلام؛ قال: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ» فالفقه فيها من الفقه في دين الله؛ بل هو من أعظم الفقه في دين الله.

ثم بعد ذلك أعمال الدين الأخرى، ومعرفة الحلال والحرام.

ثم بعد ذلك يدخل في معرفة الرغائب والسُّنن والمستحبات متدرِّجاً في الطُّلب والتَّحصيل والتَّفقه في

دين الله ﷻ.

العقيدة الأساس الذي يُبنى عليه الدين، ثم مباني الإسلام الخمسة، ثم معرفة الحلال والحرام كما جاء في الحديث؛ الرجل الذي قال للنبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أَرَأَيْتَ إِذَا صَلَّيْتُ الْمَكْتُوباتِ وَصَمْتُ رَمَضَانَ.. قَالَ فِي آخِرِهِ: وَأَحَلَلْتُ الْحَلَالَ وَحَرَّمْتُ الْحَرَامَ أَأَدْخِلُ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «نَعَمْ».

فإذا عرف الإنسان العقيدة واعتنى بها وعرف مباني الإسلام، ثم بعد ذلك يعرف الحلال والحرام، ثم بعد ذلك ينتقل لجانب الرغائب والمستحبات ومعرفة السُّنن، فإذا انطلق العبد هذه الانطلاقة المباركة وسار هذا السَّير المبارك وعُني بهذا الطُّلب والتَّحصيل؛ فهذا علامة ظاهرة على أَنَّ الله ﷻ أراد الخير به.

وقد قال العلماء -رحمهم الله- إِنَّ مفهوم المخالفة لهذا الحديث أَنَّ من لم يوفقْ لطلب العلم، ولم يكن في قلبه رغبة لتحصيله، هذا من علامات عدم إرادة الخير به، فهذا من علامات عدم إرادة الخير به؛ لأنَّ من أراد الله به خيراً ففقهه في الدين، وفقهه للفقه في دينه، فمفهوم المخالفة أَنَّ من لم يُقبل قلبه على العلم ولا على تحصيله هذا من علامات عدم إرادة الخير به.

ولهذا ينبغي على العبد أن يشتدَّ حرصه في أيَّامه، وأن يسأل رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يعلمه، وأن يفقهه، وأن يشرح صدره، وأن يُعيذه من شرِّ نفسه ومن الشيطان حتى تنشرح صدره وتُقبل على العلم، ويكون له نصيب -ولو نصيباً يسيراً- في أيَّامه من تحصيل العلم، ويحرص ألاَّ تغرب شمس يومٍ إلا وقد حصَّل فيه شيئاً من العلم قلَّ أو كثر، يكون له نصيباً؛ لأنه هدف من أهداف المسلم المقدمة في يومه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْماً» أول ما يبدأ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يومه بهذا «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْماً نافعاً» إذن لا يليق ولا يُناسب أن تغيب شمس اليوم دون أن يكون للإنسان حظٌّ من العلم؛ لأنه يخسر يومه بخُسران هدفٍ عظيمٍ من أهداف اليوم؛ بل هو الهدف المقدَّم في أهداف اليوم كما هو واضح في دعوة النبي الكريم عَلَيْهِ

(١) رواه البخاري (ح ٢٠٨)، ومسلم (ح ١٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وذكر أهل العلم أيضًا في معنى هذا الحديث حديث معاوية أنَّ قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «مَنْ يَرِدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» المرادُ بالفقه في الدين هنا الفقه المستلزم للعمل؛ أي: الذي يطلبه صاحبه للعمل، أما الذي يطلب العلم لتكثير المحفوظات وللمباهاة بين الإخوان، ولكسب الثناء والمدح، أو غير ذلك لا يكون داخلًا في قوله: «مَنْ يَرِدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

حتى وإن كثرت علومه وكثرت محفوظاته وكثر تحصيله؛ لا يكون داخلًا في الحديث؛ وهو أنَّ الله ﷻ أراد به خيرًا، لأنَّ هذه العلوم وهذه المحفوظات التي حصلها هي في الحقيقة مع حاله هذه حجةٌ عليه لا له؛ فقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»،^(١) وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا [الْكِتَابِ] أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»^(٢) خرَّجهما مسلم في «صحيحه».

وجاء عن قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: ما جلس أحدٌ لهذا القرآن - يعني ليقْرَأَ هذا القرآن إلا قام منه إمَّا بزيادة أو بنقصان. والذي يقوم منه بزيادة هو ذاك الذي يتدبَّر ويحرص على العمل بهذه الآيات بهذه المواعظ، بهذه الأوامر، بهذه النَّواهي، وإلَّا ما فائدة أن يقرأ الإنسان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحَسَسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، وربما قبل أن يقوم من المسجد في مكانه يلتفت على صاحبه يغتابُ شخصًا، أو يسخر، أو غير ذلك من الأمور التي نُهي عنها في القرآن. قال الحسن البصري رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: أنزل القرآن ليُعمل به فاتخذ الناس قراءته عملًا. قال ابن الجوزي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: معنى (اتخذ الناس قراءته عملًا) أي اشتغلوا بالقراءة فقط، يعني قراءة حروف القرآن، أما تدبُّر القرآن وعقلُ معانيه والعمل بدلالاته فهذا لا يُعْنون به، هذا ليس من علامات إرادة الخير بالعبد ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٢٩) [ص]، ولهذا ينبغي أن تتَّجه همةُ طالب العلم في طلبه للعلم إلى العمل، يطلب العلم ليعمل تكون هذه النية قائمة في قلبه، يطلب العلم ليعمل، حتَّى في تعلُّمه للسنن والمستحَبَّات يحرص على أن يطلب علم هذه الأشياء للعمل.

وقد قال بعض السلف وهو قيس المُلَائِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (إذا سمعت بالحديث فاعمل به ولو مرة تكن من

(١) رواه مسلم (ح ٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه مسلم (ح ٨١٧) من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

أهله). ومراده رَحِمَهُ اللهُ بالأحاديث التي فيها سنن ورغائب ومستحبات.

أمّا الأحاديث التي فيها فرائض وواجبات ونهي عن محرّمات هذه يكون العمل بها مستمرّاً ليكون من أهلها، لا يكفي فيها أن يعمل مرّة واحدة، لا بد أن يستمر.

أمّا السنن المندوبات يحرص الإنسان أن يكون طلب علمها مُستصحّباً نيةً في القلب وهي العمل بذلك حتى يكون من أهل هذه الأحاديث، ومن أهل هذه السنن المأثورة عن رسول الله -صلواتُ الله وسلامه عليه.

فإذن المراد بقول: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» هذا إذا أُريد بطلب العلم: العلم المستلزم للعمل، أمّا إذا كان طلب العلم مجرد طلب للعلم فقط دون استلزام للعمل فهذا شرطٌ لإرادة الخير بالعبد وليس موجباً له كما قال ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ؛ لأن من شرط إرادة الخير أن تفقه دين الله لا يمكن للعبد أن يقوم بأعمال الدين بدون الفقه، فإذا حصل الفقه حصل شرطاً من شروط قبول الأعمال فإن عمل فاز بالثواب، وإن لم يعمل لم يحصل، فلا يدخل بمجرد العلم وحده في قوله: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

لا يدخل بمجرد العلم وحده، لا يدخل بمجرد جلوسه في حلق العلم في قوله: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» حتى يكون هذا العلم مستلزماً للعمل، وتكون همّة صاحبه في طلبه وتحصيله له متّجهة إلى العمل بهذا العلم وتطبيقه، وإلّا فإنّ العلم يكون عند مثل هذا الشخص عاريةً تذهب منه يوماً من الأيام ولا استفاد منها، عاريةً بقيت عنده وقتاً ولم يستفد منها، والذي يستفيد هو الذي يعمل بهذا العلم الذي حصله واكتسبه ويُجاهد نفسه على ذلك، ويكون من أهل هذا الحديث «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

وقد جاء في حديث أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا [ابْنِ آدَمَ] يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ [شَبَابِهِ] فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ»^(١) فهذه خمسة أسئلة يسأل عنها العبد يوم القيامة، سؤالٌ عن العمر وسؤالٌ عن الجسم وسؤالٌ عن المال وسؤالٌ عن العلم؛ خمسة أسئلة لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عنها.

(١) أخرجه الترمذي (ح٢٤١٧)، وأيضاً (ح١٤١٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وصححه الألباني في الصحيحة (ح٩٤٦).

فإذن هذا يُفيد أن مقصود العلم العمل، ولهذا يُسأل يوم القيامة عن علمه ماذا عمل به، فمقصود العلم العمل، يقول علي بن أبي طالب عليه السلام:

هتف بالعلم العمل فإن أجابه وإلا ارتحل

يكون العلم عارية تذهب دون انتفاع ودون فائدة؛ بل أحياناً بعض الناس يستفيد الناس من علمه أكثر مما يستفيد هو من علمه.

وكان مطرف بن عبد الله بن الشخير يقول في دعائه كما جاء في «الزهد» للإمام أحمد: اللهم لا تجعل غيري أسعد بما علمتني مني.

قال ابن تيمية رحمته الله: وهو من أجمع الدعاء أو من أعظم الدعاء.

وغيرك يكون أسعد بعلمك منك إذا عمل به، ولم تعمل به أنت، ولهذا المصيبة عظيمة على الإنسان إذا كان يستكثر من العلوم ولا يُعنى بالعمل، ويستكثر بالعلوم والتعليم والأمر والنهي ولا يستكثر من العمل.

جاء في «المُسند» - وهو حديث حسن - من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رأيت ليلة أُسري بي قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء؟ قالوا: هؤلاء خطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون».

وجاء في «الصحيحين» من حديث أسامة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يُجاءُ برجلٍ يوم القيامة فيُلقي في النار فتندلق أفتابه - أي: تخرج مصارينه وأمعاء بطنه - ويدور في النار كما يدور الحمار بالرحى، فيأتيه أهل النار ويقولون: أي فلان ما شأنك؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر! فيقول: بلى؛ كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأناهم عن المنكر وآتية» نسأل الله العافية والسلامة.

ولهذا ينبغي على العبد وعلى طالب العلم أن يُعنى على ترويض نفسه على العمل، وأن تكون همته متجهة إلى العلم لا لمجرد التحصيل، ولا مجرد السماع؛ لأن مجرد السماع بدون همّة في تحصيله هو من إكثار حُجج الله على العبد.

وقد بلغ شدة ورع السلف وخوفهم في هذا الباب أن نُقل عن غير واحد منهم أنه قال: وددت لو أن الأمر كفافاً - يعني في هذا الذي حصّله من السنن والأحاديث والحفظ - لا لي ولا علي. وهذه الكلمة خرجت منهم من شدة الخوف، الخوف من ملاقة الله تعالى والسؤال عن العلم، لا تزول حتى يُسأل عن

علمه ماذا عمل به، فكان بعضهم يقول: وددت لو أن الأمر كفافاً لا لي ولا عليّ - يعني كل هذه العلوم التي حصلها يودّ أن الأمر كفافاً لا له ولا عليه، يقولون ذلك من شدة الخوف.

وقد جمع الله ﷻ لهم مقامين عظيمين:

مقام الإحسان في العمل.

ومقام الخوف من الله ﷻ ألا يُقبل منهم؛ كما قال الله ﷻ عن المؤمنين الكُمل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أي: خائفة ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي: خائفة، خائفة من ماذا؟ قالت عائشة رضي الله عنها للرسول عليه الصلاة والسلام: أو الرجل يسرق ويزني ويقتل ويخاف أن يُعذب؟ قال: «لا يا ابنة الصديق؛ بل هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف ألا يُقبل».

ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: إن المؤمن جمع بين إحسان ومخافة، والمنافق جمع بين إساءة وأمن.

(المؤمن جمع بين إحسان ومخافة) يحسن في علمه، في قوله، في عمله، في عبادته، في قرباته لله سبحانه وهو خائف، يطلب العلم وفيه الخوف والصلاة وفيه الخوف والطاعات الأخرى كل عبادة يكون في قلبه مع الإتيان بها خوف وأيضاً يكون في قلبه الرجاء ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، ويمضي حياته على هذا النهج.

أمّا المنافق إساءة في الأعمال وعدم خوف من ملاقة ذي الجلال والإكرام، ولهذا المنافق تميل نفسه ميلاً شديداً إلى الدنيا فقط وكسبها والتصنع بالأعمال لأجل تحصيلها ومראה الناس، ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، بينما المؤمن الصادق همه متجهة إلى الآخرة وثوابها وطلب رضى الله ﷻ والاستكثار من الأعمال التي هي سبب في الفوز بثواب الله ﷻ: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، ﴿الَّذِينَ نُوْقِفُهُمْ أَلْمَلَكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، فالأعمال سبب عظيم لدخول جنات النعيم.

فقوله: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» المراد بالفقه في الدين هنا الفقه المستلزم للعمل، ولهذا ينبغي على المسلم أن يُعنى بذلك: بالعلم والعمل معاً ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، ﴿بِالْهُدَى﴾ العلم النافع ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ العمل الصالح.

وفي الدعوة العظيمة التي يدعو بها المسلم مراتٍ وكراتٍ في أيامه ولياليه في سورة الفاتحة ﴿أَهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾ [الفاتحة].

المنعم عليهم هم الذين جمع الله ﷻ لهم ووفقهم للجمع بين العلم والعمل: علمٌ نافع وعمل صالح.

والمغضوب عليهم؛ من عندهم علم لا يعملون به، كما قال الله عن اليهود: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ [الجمعة: ٥] أي: لم يعملوا بها.

والقسم الثالث من عنده عمل بلا علم، يجتهد في العبادات وأنواع القربات لكن بدون علم بدون فقه، ولهذا يكثر في مثل هذا الضلالات والبدع والأهواء والخرافات؛ بل من الناس من صار بسبب الجهل المطبق؛ من صار من جملة قرباته التي يواظب عليها كل يوم الشرك بالله ﷻ، من جملة أعماله التي يواظب عليها كل يوم الشرك بالله ودعاء المقبورين والاستغاثة بهم والاستنجاد وصرف أنواع القربات جملة من عباداته التي يواظب عليها كل يوم، ويطمع أن تكون هذه سبباً لدخوله الجنة وهيئات، هيئات أن يكون الشرك سبباً لدخول جنات النعيم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦]، وإذا علم المسلم أن القسمة ثلاثية:

* علمٌ وعمل.

* وعلمٌ بلا عمل.

* وعملٌ بلا علم.

وأن المنعم عليهم هم أهل العلم والعمل فإنه يجد ويجتهد في تحصيل الأمرين والعناية بهما ليكون من الذين أنعم الله عليهم.

اللَّهُمَّ يَا إِلَهَنَا وَرَبَّنَا وَسَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا وفقنا لما تحبه وترضاه من سديد الأقوال وصالح الأعمال، ومُنِّ علينا جميعاً بالعلم النافع والرزق الطيب والعمل المتقبل، واهدنا إليك صراطاً مستقيماً.

اللَّهُمَّ وأصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادةً لنا في كل خير، والموت راحةً لنا من كل شر.

اللَّهُمَّ وأصلح ذات بيننا، وألف بين قلوبنا واهدنا سبل السلام، وأخرجنا من الظلمات إلى النور، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وأزواجنا وذرياتنا وأوقاتنا وأموالنا، واجعلنا مباركين أينما كنا.

اللَّهُمَّ اغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

رَبَّنَا إِنَّا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ.
سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ.
وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

